المحاضرة العاشرة : مصطلح الإبداع

جاء مصطلح "الإبداع" في القاموس المحيط للفيروز أبادي" المُبتدِع والمُبتدَع: حبل ابتُدِئ فتله ولم يكن حبلا فنُكث ثم غُزِل ثم أُعيد فتله[1].. والبدْعُ بالكسر، الأمر الذي يكون أولا.. وأبدع، أبدأ، وأبدع الشاعر أتى بالبديع".

أما في "لسان العرب: "بدع الشيء، يبدعه، بدعا، وابتدعه أنشأه وبدأه منه أبدعت الشيء، اخترعته لا على مثال، وأبدع الشاعر جاء بالبديع، والبديع المحدث العجيب"[2].

وفي الاصطلاح: الإبداع هو إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود.

قيل: هو أعم من الخلق، بدليل قوله تعالى: "بَدِيعُ السَمَوَاتِ وَالأَرضِ" (الأنعام:101).

والإبداع: من محسنات البديع، هو أن يشتمل الكلام على عدة ضروب من البديع كقوله تعالى: "يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويا سماء اقلعي ..."(هود:44).

ومادة "بدع" عند ابن فارس تتكون من الباء والدال والعين، أصلان: أحدهما ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال، والآخر الانقطاع والكلال. فالأول قولهم: أبدعت الشيء قولا أو فعلا، إذا ابتدأته عن سابق مثال، والله بديع السماوات والأرض..ونقول: وفلان بدع في الأمر،[3] قال تعالى: "مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ".(الأحقاف:9) أي ما كنت أول.

ومصطلح الإبداع في مفهومه الشعري: هو الإتيان بشيء لا نظير له. ومنه جاءت "الإبداعية" نسبة إلى الإبداع والذي هو أسلوب جديد للتعبير الفني والأدبي. فالإبداعية صفة لكل حركة أدبية أو فنية تتسم بالجدة والابتكار. وتمر العملية الإبداعية بأربع مراحل:

الأولى: الإعداد لتكوين فكرة عامة إجمالية ومعالجة التصورات والإيحاءات بشأنها.

الثانية: الكمون، وهو مواصلة المجاهدة الذهنية للوصول إلى الحل.

الثالثة: الإلهام، إذْ تتقد في ذهنه فجأة الطريقة الجديدة لغرض الفكرة.

---

[1]– الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، ج3، ص 4/3

[2]– ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، "مادة بدع"، دار صادر، بيروت،ج8، ص 7/6.

[3] – ابن فارس أبو الحسن أحمد بن زكريا الرازي: معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، المجلد الأول، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 111.

الرابعة: التحقق، وهو التأكد من الحل الذي اتقد في ذهنه لمعرفة صحته وكيفية صياغته[1] . والدكتور أحمد مطلوب فصّل مصطلح الإبداع من منظوره النقدي حيث جمع أقوال بعض النقاد، والبلاغيين في "معجم النقد العربي القديم". ومما أورده: الإبداع من أبدع وهو أن يأتي الشاعر بالبديع، والبديع الشيء الذي يكون أولا[2].

والإبداع سمة الشاعر المبتكر والكاتب المقتدر، وقد وضعه البلاغيون والنقاد في قمة الإنتاج، **قال ابن رشيق:** "الإبداع هو إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف الذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ، فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد، وحاز قصب السبق".

وقال ابن الأثير: " إن المعاني المبتدعة شبيهة بمسائل حساب المجهول من الجبر والمقابلة، فكما أنك إذا وردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهرا لبطن وتنظر إلى أوائلها وأواخرها، وتعتبر أطرافها وأوسطها، وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى المعلوم، فكذلك إذا ورد عليك معنى من المعاني ينبغي أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات الحسابية إلا أن هذا لا يقع في كل معنى، فإن أكثر المعاني قد طرق وسبق إليه، والإبداع إنما يقع في معنى غريب لم يطرق ولا يكون ذلك إلا في أمر غريب لم يأت مثله، وحينئذ إذا كتب فيه كتاب أو نظم شعر فإن الكاتب والشاعر يعثران على مظنة الإبداع فيه ".

ثانيا: تطور المفهوم النقدي للإبداع:

قبل أن نتبع تطور مفهوم الإبداع، تستوقفنا الآية الكريمة من كتاب الله عز وجل: (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وإذا قَضَى أَمْرًا فإنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (البقرة:117).

جاء في تفسير بديع السموات: " الله عز وجل بديع السموات والأرض، أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، ومنه أصحاب البدع"[3]. فالمبدع يعني الخلاق، الصانع، المنشئ، الموجد، المخترع. وفي الحديث الشريف: " وشَرُّ الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة". ويريد الرسول صلى الله عليه وسلم ما أحدث في الشرع ولم يوافق الكتاب والسنة. وقد بينه بقوله صلى الله عليه وسلم: "من سن في الإسلام سنة حسنة

---

[1]– محمد التونجي وراجي الأسمر: المعجم المفصل في علوم اللغة "الألسنيات"، مراجعة د. إميل يعقوب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1/1993ص12/11

[2]–أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت الطبعة الأولى، 2001، ص 33/32/31

[3]– راجع تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج1، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت، 1952، ص86.

كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"، والإبداع في مفهومه العام كل ما خرج عن المألوف ولم يسر على نسق القدامى، والشعر إبداع: يختلف عن النثر في كثير من الأمور أبرزها:

– الموسيقية: لاعتماده على العروض والقافية والروي، ولاختياره الأحرف الموسيقية والألفاظ الإيقاعية.

– الموهبة: ولهذا لا يمكن لأي أديب أن يصبح شاعرا، وقد يكون الشاعر غير أديب، فالموهبة لا تعلم بل تمنح من الله، وتقوى بالموهبة وتنمى بالمطالعة الشعرية.

– اللغة: تختلف لغة الشعر عن لغة البشر، إذ الشاعر يتخير ألفاظا موحية معبرة.

– العاطفة: يعبر بها عن إحساسات داخلية خاصة.

– الأغراض: قد حددها النقاد في خمسة أغراض أساسية هي: " النسيب، المديح،الهجاء، الفخر، الوصف". كما وضع النقاد حدودا أربعة للشعر: " اللفظ، الوزن، المعنى،القافية"[1].

والعملية الإبداعية عند النقاد العرب كان لها ما يثيرها كالطمع والشوق والشرب والطرب والغضب. فالمبدع لا يستطيع أن يقول أو يكتب في أي وقت شاء كما أنه لا يستطيع أن يضمن جودة الإبداع إلى آخره. "لكل شاعر فترة، لابد للشاعر وإن كان فحلا حاذقا مبرزا، مقدما من فترة له في بعض الأوقات، إما لشغل يسير، أو موت قريحة أو نبو طبع في تلك الساعة أو ذلك الحين، وقد كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول: تمر علي الساعة وقلع ضرس من أضراسي أهون علي من عمل بيت من الشعر"[2]

وانفراد أبو تمام باستخدام ضروب من البديع عرف بها " فكان ينصب القافية للبيت ليعلق الأعجاز للصدور، وذلك هو التصدير في الشعر ولا يأتي به كثيرا إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه.

وظهر ميل واضح لألوان من البديع لذا الفاطميين حيث أسرف شعراؤهم في الجناس وغيره من ألوان البديع كما فعل شاعر المعزّ لدين الله الفاطمي ابن هانئ الأندلسي (ت 362).

وهكذا صار البديع في القرنين السادس والسابع الهجريين غاية في ذاته وأصبح اهتمام الشعراء منصبا على المفردات اللغوية من حيث معناها ورسمها وصوتها وإيقاعها، وبلغ البديع كصناعة قمة

[1]– . راجع المعجم المفصل في علوم اللغة "الألسنيات"، ص 550

[2]– بن رشيق المسيلي: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الجزء الأول، باب عمل الشعر، ص 33.

نضجه تمخض عن ظهور فن جديد سمي "بالبديعيات"[1]. وهي قصائد طويلة بحرها البسيط وقافيتها الميم تدور في نطاق علم البديع وتستمد إبداعها منه. ويتضمن كل بيت نوعا من أنواع، وموضوعها الرئيس هو مدح الرسول (ص) ولعل أول من نظمها "صفي الدين الحلي" (ت750) فقد نظم قصيدة على غرار بردة البصيري في مائة وخمسة وأربعين بيتا ومطلعها:

إِنْ جِئْتَ سَلْعًا فَسَلْ عن جيرةِ العَلَمِ ً واقرأ السَّلاَمَ على عُرْبٍ بِذِي سَلَمِ

وتوالت البديعيات المشهورة كبديعية ابن جابر الأندلسي (ت 780 هـ) المسماة "الحلة السيرا* في مدح خير الورى في مائة وسبع وعشرين بيتا استهلها بقوله:

بِطَيبةَ انزِلْ ويَمِّمْ سَيِّدَ الأُمَمِ وانثُرْ لَهُ المدحَ وانشُرْ أطيبَ الكَلِمِ

وتوالى نظم البديعيات وظهر شعراء آخرون عنوا بها كوجيه الدين عبد الرحمن بن محمد اليمني، وشرف الدين عيسى بن حجاج بن عيسى بن شداد السعدي القاهري، وزين الدين شعبان بن محمد القرشي الأثاري الذي نظم ثلاث بديعيات هي:

الصغرى في مائة وتسع وستين بيتا ومطلعها:

إِنْ جِئْتَ بَدْرًا فَطِبْ وانزِلْ بِذِي سَلَمِ سَلِّمْ على مَنْ سَبَا بَدْرًا على عَلَمِ

وفي الوسطى ثلاث مائة وثمانين أبيات ومطلعها:

دَعْ عَنْكَ سَلْعًا وسَلْ عن سَاكِنِ الحَرَمِ ِ وَخَلِّ سَلْمَى وسَلْ ما فِيهِ من كَرَمِ ِ

والكبرى في أربع مائة وسبع أبيات ومطلعها:

حُسْنُ البَدَاعةِ حَمْدُ اَللهِ في الكَلِمِ ِ ومَدْحُ أَحْمَدَ خيرِ العُرْبِ والعَجَمِ.

وفي العصر الحديث جاءت الرومانسية تفسح المجال واسعا للعبقرية الفردية المبدعة وتعيد الصراع بين الإبداعي والاتباعي، أو بين القديم والحديث بأدوات إجرائية، فكان هدف الرومانسية إحداث المتعة للمتلقي، وإطلاق العنان للقوة الخلاقة، حيث بنى الرومانسيون لأنفسهم عوالم جديدة فصار المبدع يدعو إلى التجديد في عمود الشعر ومضمونه.

[1]– راجع معجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب، ص 224– 225

*السيرا هي: المخططة، أو يخالطها حرير